المبحث السابع

التحدي

المبحث السابع

التحدي

كان العرب قد بالغوا لعهد القرآن مبلغهم من تهذيب اللغة، ومن كمال الفطرة، ومن دقّة الحسن البياني، حتى أوشكوا أن يصيروا في هذا المعنى قبيلاً واحداً باجتماعهم على بلاغة الكلمة وفصاحة المنطق، فجاء القرآن الكريم أفصح كلام وأبلغه لفظاً وأسلوباً ومعنى، ليجد السبيل إلى امتلاك الوحدة العربية التي كانت معقودة بالألسنة يومئذ فهو لا ينتهي إلى هذه الوحدة ولا يستولي عليها إلا إذا كان أقوى منها فيما هي قوية به، بحيث يشعر أهلها بالعجز والضعف والاضطراب شعوراً لا حيلة فيه للخديعة والتلبيس على النفس، والتضريب[1] بين الشك واليقين.[2]

حيث جاء التحدي على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: تحدّاهم أن يأتوا بمثله كلّه مجتمعاً. يقول سبحانه في ذلك ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[3].

المرحلة الثانية: تحدّاهم القرآن أن يأتوا بعشر سور من مثل سورة فقال سبحانه ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[4].

المرحلة الثالثة: تحدّاهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثل سورة أياً كانت هذه السورة، قصيرة أو طولية. مكيّة كانت أو مدنية، فقال سبحانه: ﴿

(1) التضريب بين القوم: الإغراء (يُنْظَرْ: لسان العرب 5/1).
(2) يُنْظَرْ: إعجاز القران للرافعي:166.
(3) سورة الطور الآيات:33-34.
(4) سورة هود الآيات:13-14

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [1]، (ولئن كان العرب الأوائل وهم الفصحاء والبلغاء وفيهم جهابذة البيان ومصاقع الخطابة قد نكصوا على أعقابهم لما سمعوا القرآن يتحداهم، وأصدق دليل على ذلك ما قاله أحد عباقرة البيان في زمن الفصاحة والخطابة، وهو الوليد ابن المغيرة (والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وان أسفله لمغدق، وان أعلاه لمثمر وانه ليعلو ولا يعلى سمعت قولاً يأخذ القلوب).[2]

ويمكن أن نستخلص: إن التحدي قائم طوال حياة رسول الله (ﷺ) وأن المشركين عجزوا عن الإتيان بمثله أو مثل بعضه وهو عجز يدل عليه النقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري، فلا يمكن جحود هذا الأمر، والذي يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن أنه تحداهم إليه حتى طال التحدي، وجعله دلالة على صدقه (ﷺ) ونبوته، وضمن أحكامه استباحة دمائهم وأموالهم وسبي ذريتهم، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا وتوصلوا إلى تخليص أنفسهم وأهليهم من حكمة بأمر قريب، هو عادتهم في لسانهم ومألوف من خطابهم، وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال، وإكثار المراء والجدال، وعن الجلاء عن الأوطان، وعن تسليم الأهل والذرية للسبي، فلما لم تحصل هناك معارضة منهم علم أنهم عاجزون عنها.[3]

إذن: كان عجزهم حقيقة لا جدال حولها، وكان عجز غير العرب عن ذلك أوضح، لأن العرب – وهم المتكلمون باللغة المنزل بها- عجزوا عن ذلك مع توفر الدواعي وشدّة الحاجة، وصدق الله العظيم إذ قال:﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن

(1) سورة البقرة الآيات:23-24.
(2) الإصابة في تمييز الصحابة:245/2.
(3) يُنْظَرْ:إعجاز القران للرافعي 165.

﴿ يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [1] وقد تناهى العجز من أهل الأرض جميعاً وهم في ذلك نفس واحدة [2].

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [3].

دراسة مراحل التحدي:

وإذا أردنا أن ندرس مراحل التحدي لنرى ما بينها من وجوه الاتفاق والاختلاف، فأننا نجد ما يأتي:

(1) إن هذه المراحل كلها جاءت تعلن التحدي بكل قوة وثقة.

(2) إن المراحل الثلاث الأولى كلها مكيّة التنزل.

(3) إن مراحل التحدي خوطب بها العرب، لأنهم هم المتحدون في هذه المراحل.

وبعد هذه الدراسة لمراحل التحدي نقرر مطمئنين أن وجوه الإعجاز متعددة من حقائق علمية وكونية، ومن حيث ما فيه من أخبار الأمم السابقة، ومن أخبار غيب المستقبل، ومن حيث تأثيره في النفوس، وغيرها مما ستعلم نبأه بعد حين إن شاء الله تعالى، وكيف لا يتحدى القرآن الكريم العرب حيث قال عزّ وجلّ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ [4]، فأن مشهد الليل وما فيه من سبات، والنهار وما فيه من حركة وانبعاث، فإن الإنسان له علاقة بهذا الكون لما فيه من توافق وتناسق.[5] فهذه الآيات وغيرها تعلن أسرهم أمام روعة النصّ القرآني،

(1) سورة الإسراء الآية:88.
(2) يُنْظَرْ:إعجاز القران للرافعي 165.
(3) سورة لقمان الآية :27.
(4) سورة لقمان الآية :27.
(5) يُنْظَرْ:إعجاز القران للباقلاني:99.

فالقرآن الكريم يفيض بالتصوير الحسي في تجسيد المشهد الواحد، فكيف بالقرآن الكريم بأجمعه.[1]

(1) يُنْظَرْ:نظم الدرر للبقاعي 55/7.